نقد الشريف المرتضى لشعر مروان بن أبي حفصة عرض وتحليل

Al-Sharif Al-Murtada's Critique of Marwan Ibn Abi Hafsa's Poetry Presentation and Analysis

م.م. كاظم جابر حسن
وزارة التربية / المديرية العامة للتربية في محافظة ذي قار

M. M. Kadhim Jaber Hassan
Ministry of Education
General Directorate of Education in Dhi Qar Governorate
hramy250@gmail.com

ملخص البحث :

يُسلط البحث الضوء على الآراء النقدية الخاصة بشعر مروان بن أبي حفصة والتي ذكرها الشريف المرتضى في كتابه الأمالي, فقد كان للنقد الأدبي حضورًا في كتب الأمالي إلى جانب بقية العلوم التي تضمنتها بما عُرِفَ عن هذه الكتب من طابع التعدد في الموضوعات وتوثيقها الكامل, كالتفسير, والحديث, واللغة, والأخبار, وغيرها, لذلك لاقت كتب الأمالي اهتمامًا واسعًا من قِبَلِ الدارسين والمتخصصين بوصفها حاضنةً لشتى مجالات العلم والمعرفة ومن ضمنها النقد الأدبي. ورغم جهود الباحثين بدراسة النقد الذي خلفه لنا الشريف المرتضى سواء في كتاب الأمالي أم في كتبه الاخرى التي حوت على ملاحظات ورؤىً نقدية هامة, إلا أننا لم نجد مَن أفرد بحثًا يتناول نقده لشعر مروان بن أبي حفصة, وهذا هو سبب اختيارنا للبحث الذي حاولنا فيه معالجة قلة التنظير النقدي الخاص بشعر مروان, ولطبيعة المنهج الوصفي الذي سلكناه في البحث, والقائم على عرض النصوص وتحليلها, قمنا بتتبع كل ما جاء في هذا الكتاب(أمالي

المرتـضى) مـن نقـدٍ يخـص شـعر مـروان بـن أبي حفصـة وتوجيهـه عرضًـا وتحليـلًا, منطلقـين مـن تصـورات نقديـة نافـذة لأحـد أعـلام القـرن الخامـس الهجـري وهـو يتنـاول بنقـده شـاعرًا مهـمًا عـاش الدولتـين الأمويـة والعباسـية.

الكلـمات المفتاحيـة : نقـد الشـعر – الشريف المرتـضى – الأمـالي – مـروان بـن أبي حفصة.

Research Summary:

This research sheds light on the critical opinions regarding the poetry of Marwan ibn Abi Hafsa, as mentioned by Al-Sharif Al-Murtada in his book Al-Amali. Literary criticism was present in Al-Amali alongside other sciences it encompassed, given the books' well-known diversity of topics and their thorough documentation, such as exegesis, hadith, linguistics, historical accounts, and others. Therefore, Al-Amali books received widespread attention from scholars and specialists as a repository of various fields of knowledge, including literary criticism.

Despite the efforts of researchers to study the criticism left to us by Al-Sharif Al-Murtada, whether in the book Al-Amali or in his other books that contained important critical observations and visions, we did not find anyone who devoted a study to his criticism of the poetry of Marwan bin Abi Hafsa. This is the reason for our choice of research in which we tried to address the lack of critical theorizing about the poetry of Marwan. Due to the nature of the descriptive approach that we adopted in the research, which is based on presenting and analyzing texts, we tracked everything that came in this book (Al-Amali of Al-Murtada) regarding criticism of the poetry of Marwan bin Abi Hafsa and directed it in presentation and analysis, starting from the insightful critical perceptions of one of the luminaries of the fifth century AH, as he deals with his criticism of an important poet who lived during the Umayyad and Abbasid states.

Keywords: Poetry criticism – Al-Sharif Al-Murtada – Al-Amali – Marwan Ibn Abi Hafsa.

البحث :

تـرك لنـا عـلي بـن الحسـين الموسـوي العلـوي المعـروف بالشريـف المرتـضى(ت ٤٣٦هـ) تراثًـا نقديًـا مهـمًا يُمكـن حـصره في ثلاثـةٍ مـن آثـاره التـي وصلـت إلينـا مـع بقيـة آثـاره الأخـرى, وهـذه الكتـب هـي أمـالي المرتـضى والمسـمى أيضًـا(غـرر الفوائـد ودرر المقاصد) وكتاب(الشـهاب في الشـيب والشـباب) وكتاب(طيـف الخيـال) وباسـتثناء كتـاب الأمـالي المحكـوم بتعـدد الموضوعـات ومنهـا النقـد الأدبي, فـإنَّ كتابيـه الآخريـن يُصنفـان عـلى أنهـما مـن كتـب المختـارات الشـعرية الخاضعـة للـذوق النقـدي الخـاص في اختيـار الشـعر, لذلـك عمـد الشريـف المرتـضى في كتابيـه هذيـن إلى اختيـار قصائـدًا لـه ولغـيره مـن الشـعراء تـتعلـق بموضوعـات الشـيب,

والشباب, وطيف الخيال, مُضمِّنًا اختياراته تعليقاتٍ نقدية هامة لا تبتعد عن مبدأ الموازنة, كما إنها تعكس مستوى التطور والنضج الذي وصل إليه النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري والذي كان امتدادًا طبيعيًا لجهود النقاد المبذولة في القرون السابقة وما تمخض عن تلك الجهود من نظرية نقدية اتسمت بالوعي والكمال في معالجة أهم نتاج فني عند العرب ألا وهو الشعر.

أمَّا فيما يخص كتبه المفقودة, فإننا نعتقد بأنَّ له آراءً نقديةً أخرى في كتابيه المفقودين وهما كتاب البرق أو ما يسمى(المرموق في أوصاف البروق) والذي يُرجح أن يكون على غرار كتابيه السابقين في تحكيم ذوقه النقدي في اختيار القصائد الخاصة بعنوان الكتاب وتضمينه لتعليقات نقدية, وكذلك كتابه(تتبع الأبيات التي تكلم عليها ابن جني في إثبات المعاني للمتنبي) وهو كتاب يحتمل في اعتقادنا أيضًا أن يحتوي على تعليقاتٍ وردودٍ هامة, ناقش فيها آراء ابن جني(ت ٣٩٣هـ) على بعض أشعار المتنبي, فقد عُرِفَ عن الشريف المرتضى تقصيه لآراء كبار النقاد واللغويين ومناقشتها مناقشة حاذقة بما يشبه اليوم ما نطلق عليه النقد اللغوي, أو نقد النقد كما فعل مع الآمدي في موازنته بين أبي تمام والبحتري حيث جاءت ردوده على الآمدي في كتبه الثلاث المشار إليها في بداية البحث جريئةً وصائبةً في الكثير من الأحيان[1] على أننا في كل ما تقدم قد استثنينا ما ورد له من شذراتٍ نقديةٍ أخرى في شرحه لقصيدة السيد الحِميري المعروفة بالمُذهبة والتي مطلعها [2] :

هَلَّا وَقَفْتَ عَلَى المَكَان المُعْشِبِ
بَيْنَ الطُّوَيْلِعِ فاللِّوَى مِنْ كَبْكَبِ

فقد أفرد لها كتابًا خاصًا طُبِع بعنوان(شرح القصيدة المذهبة في مدح أمير المؤمنين للسيد الحِميري) بتحقيق محمد حسين الواعظ الانجفي, حيث تضمن هذا الشرح ملاحظاتٍ نقديةٍ وبلاغيةٍ ولغويةٍ, إلا أنَّ الصفة الغالبة عليه تنحو نحو تفسير ما ورد في القصيدة من مشكل الألفاظ وبيان معانيها وتأويلها, لما تقتضيه طبيعة التأليف في كتب الشروح من خاصية البحث عن المعنى المُبهم وإخراجه للقارئ.

وفي العودة لما يخص نقد الشريف المرتضى لشعر مروان بن أبي حفصه(ت ١٨٢هـ) [3] فإننا لم نجد من القدماء مَن تناول شعر الأخير بالنقد الكافي مثلما فعل الشريف المرتضى في كتابه الأمالي, فلو بحثنا عمَّن ذكر مروان بن أبي حفصة من النقاد القدامى, وجدنا ذكره عند أبرز أعلامهم, كابن قتيبة(ت ٢٧٦ هـ) في الشعر والشعراء وكذلك ابن المعتز(ت ٢٩٦) في طبقات الشعراء, والمرزباني(ت ٣٨٤ هـ) في الموشح, وغيرهم, لكن هؤلاء لم يتناولوا شعره بالنقد على الشاكلة التي نجدها

عند الشريف المرتضى, بل جاء ذكرهم له في سياق حديثهم المحكوم بسطوة المنهج الذي وضعوه لكتبهم والذي تراوح بين رواية أخباره وبعض أشعاره وترجمتهم له مع قليل من التعليقات النقدية العابرة سواء أكانت تخص شعر مروان أو غيره ممَن ذكروا من الشعراء.

نبدأ بحثنا من بوابة التصريح الذي نقله الشريف المرتضى في أماليه والذي كان سببًا في ذكره للشاعر ونقده لشعره, وذلك عندما تذاكر الحاضرون لديه في أحد المجالس شعر المحدثين وطبقاتهم, حتى انتهوا إلى ذكر مروان بن أبي حفصة, ثم انقسموا بعد ذلك إلى فريقين, فريق مغالٍ في تقريضه, وآخر مفرط في تهجينه وذمَّه, فما كان من الشريف المرتضى إلا أن يكون حكمًا بينهما بعد أن طلبوا منه رأيه, فجاء حكمه النقدي وافيًا على نحو ما, ومبينًا لمواطن الضعف والاجادة لدى الشاعر, ثم أتبع حكمه بمعاودة ذكر الشاعر في مواطن أخرى من المجالس منوهًا لذلك بعبارات ترددت كثيرًا في أماليه مثل قوله((ونعود إلى ما كنا وعدنا به من الكلام على شعر مروان)) [٤] أو قوله((ونعود إلى ما كنا شرعنا فيه من الكلام على شعر مروان)) [٥] مما يوحي باهتمامه في الإجابة عن السؤال الموجه إليه بشكلٍ كامل, ومحاولته استيفاء حكمه النقدي من خلال تكرار مذاكرته للشاعر في أكثر من مجلس, يتضح كل هذا من خلال النص الذي سنقتبسه كاملًا بغية إيضاح الصورة.

يقول الشريف المرتضى((ذاكرني قوم من أهل الأدب بأشعار المحدثين وطبقاتهم وانتهوا إلى مروان بن أبي حفصة, فأفرط بعضهم في وصفه وتقريضه, وآخرون في ذمه وتهجينه, والإزراء على شعره وطريقته, واستخبروا عما أعتقده فيه, فقلت لهم : كان مروان متساوي الكلام, متشابه الألفاظ, غير متصرف في المعاني ولا غواص عليها, ولا مدقق لها, فلذلك قلت النظائر في شعره, ومدائحه مكررة الألفاظ والمعاني, وهو غزير الشعر قليل المعنى, إلا أنه مع ذلك شاعر له تجويد وحذق, وهو أشعر من كثير من أهل زمانه وطبقته, وأشعر شعراء أهله, ويجب أن يكون دون مسلم بن الوليد في تنقيح الألفاظ وتدقيق المعاني, وحسن الألفاظ, ووقوع التشبيهات, ودون بشار بن برد في الأبيات النادرة السائرة, فكأنه طبقة بينهما, وليس بمقصرٍ دونهما شديدًا, ولا منحط عنهما بعيدًا, وكان إسحاق بن إبراهيم الموصلي يقدمه على بشار ومسلم, وكذلك أبو عمرو الشيباني, وكان الأصمعي يقول : مروان مولَّد وليس له علم باللغة. واختلاف الناس في اختيار الشعر بحسب اختلافهم في التنبيه عن معانيه, وبحسب ما يشترطونه من مذاهبه وطرائقه)) [٦].

فنحن هنا أمام أحكام النقدية وإن

اتسمت بطابع الإيجاز إلا أنها تحتوي على جملة من المفاهيم والرؤى النقدية الجديرة بالاهتمام, ولطبيعة دراستنا القائمة على العرض والتحليل, نرى من الضرورة عرض كل هذه الأحكام حكمًا تلو آخر وتحليلها بما يُفضي لفهمها التام, وكذلك استقصاء مواردها التي لا شك بأنها مُستقاة من أصول النظرية النقدية عند العرب, كفكرة اللفظ والمعنى, والطبقات, والتشبيهات, وتنقيح الشعر, واختيار ألفاظه, هذه الأحكام التي نراها واضحة في النص الذي اقتبسناه كاملًا جعلها الشريف المرتضى منطلقاتٍ ومعايير لحكمه النقدي, ثم اتبعها بقضيةٍ لا تقل أهميةً عما سبقها من قضايا نقدية مهمة, ألا وهي قضية اختيار الشعر على أساس الذوق الذي يلائم طبيعة التلقي العربي في استحسان الأشعار والتي دعته في النهاية إلى اختيار بعض قصائد مروان ــ كما سنرى ــ على أنها من جيد الشعر.

ينطلق الشريف المرتضى في نقده لشعر مروان من أحكام كان يراها ضروريةً لتقييم الشاعر والحكم عليه, وذلك لطبيعة الموقف الذي كان فيه, فهو في موقف سؤال وُجِه إليه من لدن الحاضرين لديه, وعليه أن يُدلي بالإجابة بما كان يمتلك من أدوات نقدية, فبدأ بوصف شعر مروان على نحوٍ مُجمل يقتضي تكثيف العبارة النقدية وعمق دلالتها, فمروان عنده كان متساوي الكلام, متشابه الألفاظ, بمعنى أنه كان ذا طريقةٍ واحدةٍ في نظم الشعر من حيث ألفاظه ومعانيه, ولم يكن ممَن تفاوت شعره بين الجودة والابتذال, بل سار على نهج واحد أملته عليه طبيعة القريحة التي كان عليها, والتي جعلته أقرب إلى الطبع منه إلى الصنعة, فهو يُلبس معانيه ألفاظها القريبة المأخذ مما تعارف عليه الشعراء في ذلك العصر حتى غدا مستوي الكلام في نظم الشعر.

إنَّ حكمًا كهذا لا يصدر من تصورات وحسب في ذهن الناقد حين يتناول شعر أحد الشعراء, بل يستند إلى معرفة ودراية في شعر الشاعر, وهو ما يُحيلنا إلى حتمية إطلاع الشريف المرتضى على أغلب شعر مروان بن أبي حفصة, ذلك لأنه وصف شعره عامةً وطريقته في النظم على نحو يشير إلى حكم الناقد البصير العارف والواثق من حكمه. ثم يتناول قضية المعنى في شعر مروان بشكل لافت, وهذا ما يُوحي باهتمام الشريف المرتضى بالمعنى مقدمًا إياه على اللفظ, فيصف مروان بأنه(غير متصرف بالمعاني ولا غواص عليها, ولا مدقق لها) فهو ليس من أولئك الشعراء الذين يمتلكون حذاقة تصريف المعاني وتوليدها من بعضها البعض, ولا من مبتدعيها الذين يبتكرونها لأول مرة إلا فيما ندر, تلك القضية التي يُمكن عدها سببًا مهمًا من أسباب التطور في حركة النقد الأدبي عند العرب, وما رافقها من الحديث عن السرقات

وعن معاني الشعراء الأوائل وطريقتهم ومعاني المحدثين وطريقتهم التي تناسب حياتهم الجديدة, ولأنَّ الشريف المرتضى شاعرٌ وناقدٌ في الآن ذاته, ذلك ما جعله على سعة من الاطلاع بمعاني المتقدمين والمحدثين, ولولا سعة اطلاعه وتتبعه لمعاني الفريقين لما استطاع أن يحكم على مروان بأنه غير متصرف في المعاني, ولا من أولئك الذين يبتدعونها من غير سابقة, مما كان سببًا في قلة النظائر في شعره, أي الأبيات التي تتسم بفرادة المعنى من غير سابقة, أو أخذ المعنى واستجلاءه بما يُحسب له دون غيره من الشعراء.

أمَّا قوله(ومدائحه مكررة الألفاظ والمعاني) فهو إشارة لمعرفته التامة بضلوع مروان بن أبي حفصة في فن المديح, لا سيما مديحه لمعن بن زائدة الشيباني, ومَن عاصره من خلفاء بني العباس, كالمهدي(١٥٨ ــ ١٦٩ هـ) والهادي(١٦٩ ــ ١٧٠ هـ) والرشيد(١٧٠ ــ ١٩٣ هـ) وغيرهم من الولاة والوزراء, فلم يُعرَف مروان بغير غرضي المديح والرثاء اللذين كان لمعن بن زائدة نصيبٌ أوفى, وعلى الرغم من احتواء أشعاره التي بين أيدينا على أغراض أخرى تتخطى هذين الغرضين, لكنها من الندرة بما يمكن الحكم فيه على مروان بأنه شاعر مديح ورثاء دون بقية الأغراض, على أنَّ الغريب هو أنَّ الشريف المرتضى لم يذكر في نقده مراثي مروان لمعن بن زائدة الشيباني والتي كانت من عيون شعره.

إنَّ حكم الشريف المرتضى على مدائح مروان ونعتها بتكرار اللفظ والمعنى كان على نحو كبير من الصواب, فحين نستعرض ديوان مروان, نجد في مدائحه ما يتكرر من معاني الشجاعة والكرم والبأس والأصل العربي العريق, فهو يدور في فلك هذه المعاني في جل مدائحه إن لم يكن كلها, وليس عصيًا علينا تحليل مثل هذه الظاهرة الراسخة في فن المديح, فما يرتضيه الذوق العربي من هذه النعوت ويطمئن لها, هو أنها من أشرف الصفات التي ارتضتها الثقافة العربية في الشخص الممدوح, على أنَّ الأمر لا يقتصر على مدائح مروان لبني العباس وحده, بل يسري ذلك على جل معاني المديح التي نجدها لدى غيره من الشعراء وهم يزاولون هذا الفن في عصور الأدب المتعاقبة, يظهر لنا ذلك في قوله يمدح معن بن زائدة الشيباني[٧] :

إلى المُجتَدَى معنٍ تَخَطَّتْ رِكَابُنا
تَنائِفَ فيما بَينَها الريحُ تَلْغَبُ[٨]
كأنَّ دَلِيلَ القَومِ بَينَ سُهُوبِها
طَرِيدُ دَمٍ مِنْ خَشْيَةِ المَوتِ يُهرَبُ

وكذلك قوله في مدح المهدي[٩] :

أيادِي بَنِي العَبَاسِ بيضٌ سَوابِغٌ
عَلَى كِلِّ قومٍ بَادِياتٌ عَوَائِدُ
سواعدُ عزِّ المُسلِمينَ وإنما
تنوءُ بِصَولاتِ الأكفِّ السَواعِدُ

ومِمَّا ساقه الشريف المرتضى من مدائح

مـروان التـي يظهـر فيهـا تكـرار اللفـظ والمعنـى قولـه((فأمـا قولـه :

تَرُوكُ الهوى لا السخطُ منه ولا الرِّضا
لَدَى مَوطنٍ إلاَّ على الحَقِ حَامِلُه

فمعنـىً متـداول مطـروق في الشـعر, وقـد كـرره هـو في قولـه :

إذا هـنَّ ألقـين الـرحـال ببابـه
حططن به ثقلًا وأدركنَ مغنما
إلى طاهر الأخلاق ما نال في رضاً
ولا غضبًا مالًا حرامًا ولا دما[١٠]

ونظائـر هـذه المعـاني وغيرهـا مـما أشرنـا إليهـا كثـيرة في مدائـح مـروان, فهـو شـاعر مديـح بالدرجـة الأولى, وهـو مـا جعـل الشريـف المرتـضى يذكـر هـذا الغـرض في شـعر مـروان, ويتناولـه بوصـف نقـدي مصيـب.

وفي إشـارته إلى أنَّ مـروان كان(غزيـر الشـعر قليـل المعنـى) تسـتوقفنا قضيـة لا شـك بـأنَّ لعـوادي الزمـن فيهـا كلمـةً نافـذة, فعـلى الرغـم مـن تكـرار الحكـم عـلى مـروان بأنه(قليـل المعنـى) وإن ورد بعبـارات أخـرى تـدل عـلى هـذا الحكـم فيـما اقتبسـناه مـن النـص في بدايـة البحـث, لكننـا لم نجـد في ديوانـه تلـك الغـزارة التـي وصفـه بهـا, فـما بـين أيدينـا مـن شـعره لا يوحـي بتلـك الغـزارة أبـدًا, وقـد عالـج الدكتـور حسـين عطـوان محقـق الديـوان هـذه المسـألة التـي نشـاطره فيهـا الـرأي تمامًـا بالقـول بأنـه قـد اسـتوثق مـن أنَّ مخطوطـة ديـوان مـروان قـد فُقِـدتْ ولم يُعـثر عليهـا حتـى وقتنـا هـذا, مـع أنَّ ابـن النديـم قـد ذكـر في كتابـه الفهرسـت أنـه كان لـه ديـوان يقـع في ثـلاث مائـة ورقـة . أمـا مصـادر شـعر مـروان فقـد توزعـت في طبقـات الشـعراء لابـن المعتـز, والأغـاني لأبي الفـرج الأصفهـاني, والأمـالي للشريـف المرتـضى, وتاريـخ ابـن عسـاكر , إذ تُعـد هـذه الكتـب المصـادر الأساسـية لشـعر مـروان أو بمعنـى أنهـا الكتـب التـي اشـتملت عـلى أكـثر مـا بقـي مـن شـعره[١١] ذلـك مـا يجعلنـا نجـزم القـول بمعرفـة الشريـف المرتـضى بغـزارة شـعر مـروان سـواءً أكان عـلى سـبيل علمـه بديوانـه والـذي مـن المرجـح عندنـا أنـه كان موجـودًا في عـصر الشريـف المرتـضى, أم عـلى سـبيل سـماع الأخـير لأشـعار مـروان مـن أفـواه رواة الشـعر في ذلـك الزمـان, فليـس مـن المنطـق أن يُنعـت شـاعر بغـزارة الشـعر ولا يتعـدى ديوانـه الـذي بـين أيدينـا عـلى ٧٦ قصيـدة بعضهـا مقطوعـات أو أبيـات منفـردة كـما صنفهـا محقـق ديوانـه, وبضمنهـا الأشـعار التـي لم تثبـت نسـبتها إلى مـروان بشـكل قاطـع[١٢].

بعـد ذلـك يتبـع الشريـف المرتـضى مـا تقـدم مـن حكـم نقـدي والمتعلـق بغـزارة الشـعر وقلـة المعنـى بحكـم نقـدي آخـر وهو(التجويـد والحـذق) وهـو أول الأحـكام التـي أعـلى فيهـا مـن شـعر مـروان, لكنـه حكـم غـير معلـل, فلـم ينـوه لأسـباب تجويد مـروان ولا تعليـل حذاقتـه في بعـض أشـعاره, بـل اكتفـى بذكـر هاتـين الصفتين تحـت رهان

ذوقه النقدي الخاص مع جملة الأحكام النقدية المتعددة التي ذكرها, رغم ما يُشير إليه لفظا الحذاقة والتجويد من معنى المهارة في اتقان العمل, ولعل مرد ذلك يعود لطبيعة النقد في كتب الأمالي, فهي كتب غير مخصصة للنقد ــ كما أشرنا سابقًا ــ وإنما يأتي النقد فيها عارضًا من عوارض الحديث, لذلك فهي ليست على غرار كتب التأليف النقدي الحر الذي يجد فيها الناقد مساحة واسعة للحديث عن أفكاره النقدية والافاضة فيها بشكل تام يسمح له بالخوض والإحاطة.

ثم ينتقل الشريف المرتضى بسائليه عن شعر مروان ليضعه في مكانته بين معاصريه وأهل طبقته, ومَن كان من أسرته من الشعراء, فيحكم له بالأفضلية على الكثير من أهل زمانه وطبقته, ويضع مروان في مرتبة متقدمة بين شعراء عصره وطبقته, مستخدمًا صيغة (أفعل التفضيل) للدلالة على ذلك التقديم, فمروان لديه(أشعر من كثير من أهل زمانه وطبقته) ولو تأملنا مدلول كلمة(زمانه) لوجدنا أنَّ مروان كان ممَّن عاصر الدولتين الأموية والعباسية فهو من مخضرمي الدولتين الذين استطاعوا بمديحهم أن يتخطوا تقلبات نظام الحكم, ليجدوا انفسهم بمقبولية كبيرة عند الخلفاء العباسيين, ليس هذا فحسب, بل أنه كان ذا منزلة كبيرة لدى خلفاء وأمراء بني العباس حيث كانوا(يجزلون عطاءه ويقدمونه على سائر الشعراء)[١٣] ذلك العطاء الذي وصفه أبن المعتز بقوله((ما أخذ أحدٌ من الشعراء المتقدمين ولا المحدثين ما أخذه مروان بالشعر))[١٤]. ولم يكن ذلك كله إلا بغرض المديح, فلولا المديح لما استطاع مروان أن يجد نفسه مرحبًا به في قصور الخلافة العباسية, ذلك ما جعله يحتل مكانًا بارزًا بين شعراء عصره الذي كان غنيًا بشعراء آخرين ممَّن عاصروا مروان ويُشار إليهم بجودة الشعر, بل ويتفوقون عليه في الكثير من نواحيه, يقف على رأسهم إبراهيم بن هرمة والحسين بن مطير وغيرهم. وعلى الرغم من أنَّ الشريف المرتضى لم يُشر إلى تفوق مروان في فن المديح, لكننا نلتمس ذلك ضمنًا, فكل قارئ لديوان مروان سيجد أن لا عنوان لتفوق مروان على غيره إلا بهذا الغرض الذي أخذ نصيبًا وافرًا من شعره. ما يدل على ذلك هو أنَّ الشريف المرتضى وبعد أن يُكمل نصه النقدي الخاص بشعر مروان, يختار بذائقته النقدية من شعر مروان قصائد مديح على أنها من جيد الشعر كما سنرى.

أمَّا مفهوم الطبقة عند الشريف المرتضى, فقد جاء دون محددات واضحة تكشف لنا مفهوم الطبقة عنده أو أسباب التفوق فيها, فقد ذكرها في موردٍ يكتنفه الغموض والتعميم رغم تبنيه إياها معيارًا للحكم النقدي.

ما نذهب إليه هو أنَّ الطبقة عند

الشريف المرتضى وردت في سياق نرجح فيه أن تكون بمعنى المدرسة أو طريقة النظم لدى شعراء يجمعهم زمن واحد وربما غرض واحد, وهو مما يسمح به مفهوم الطبقة الذي يتسع لأكثر من مفهوم بُنيت عليه كما نرى في كتب الطبقات, فما عدا طبقات ابن سلاَّم الجمحي(ت ٢٣١هـ) المحكومة بصرامة المنهج والعدد, لا نرى في كتب الطبقات الأخرى نوعًا من المنهجية الواضحة كما هو الحال عند ابن المعتز(٢٩٦هـ) الذي كانت لديه تحت مظلة فن المديح(مَن مدح خلفاء ووزراء بني العباس), يقول ابن المعتز((فخطر على الخاطر في بعض الأفكار, أن أذكر في نسخة ما وضعته الشعراء من الأشعار, في مدح الخلفاء والوزراء والأمراء من بني العباس))[١٥] وكذلك عند ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء الذي لا يُعد في رأينا من كتب الطبقات رغم كثرة الباحثين الذين وصفوه بهذه الصفة, فقد أشار في مقدمة الكتاب على ذكر الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وقبائلهم ممَن يحتج بشعرهم من المشهورين الذين يعرفهم أهل الأدب دون غيرهم من المغمورين[١٦] . فكلا الناقدين ذكرا مروان بن أبي حفصه على أساس المنهج الذي وضع عليه كتابه, فوجود مروان في طبقات ابن المعتز جاء بسبب مدائحه لبني العباس, وفي كتاب ابن قتيبة جاء على أساس الشهرة والاحتجاج بشعره كونه متقدم نسبيًا, ذلك ما يعني سعة مفهوم الطبقة عند النقاد وعدم ثباتها على رؤية نقدية واحدة.

وبذات الحكم النقدي القائم على التفضيل غير المعلل, يمضي الشريف المرتضى في تفضيل مروان على مَن كان في أسرته من الشعراء(وأشعر شعراء أهله) فمروان كان من أسرة معروفة في نظم الشعر ومدح الخلفاء, فقد ذكر ابن النديم من أسرته ما يفوق عشرة شعراء, مَن كان منهم مقلًا في قول الشعر ومَن كان مكثرًا, كمروان بن أبي الجنوب, وفتوح بن محمود, وعبد الله بن مروان بن أبي حفصة وغيرهم[١٧].

ثم ينحو الشريف المرتضى في نقده لشعر مروان على نحو يقترب من الموازنة بينه وبين غيره من كبار الشعراء, الذين يشاطرونه بعض صفات الشعر, وهما مسلم بن الوليد وبشار بن برد, ولم يكن اختياره لهذين الشاعرين مما يتسم بالفرادة في الموازنة بينهما وبين مروان, بل سبقه لذلك غيره من النقاد, كالأصمعي والمرزباني, لكنه له حكمه النقدي الخاص وطريقته في عقد موازنته التي بناها على أسسٍ واضحة, فقد أشار لهذه الأسس صراحةً, ثم أطلق حكمه النقدي بشكلٍ قاطع بما يوحي إليه الفعل(يجب) بتفضيل مسلم بن الوليد وبشار بن برد على مروان, لكنه ليس بذلك التفضيل البعيد, بل هو التفضيل

الذي لا يجعل بينهما وبين مروان بونًا بعيدًا, يقول الشريف المرتضى((ويجب أن يكون دون مسلم بن الوليد في تنقيح الألفاظ وتدقيق المعاني, وحسن الألفاظ,, ووقوع التشبيهات, ودون بشار بن برد في الأبيات النادرة, فكأنه طبقة بينهما, وليس بمقصرٍ دونهما شديدًا, ولا منحط عنهما بعيدًا).

فنحن أمام موازنة واضحة المعالم بين مروان وبين مَن يصح أن تقوم موازنته معه, فعلى الرغم مما عُرِفَ عن مروان من تنقيح الألفاظ, فقد كان(يُنقح الشعر ويحككه)[١٨] إلا أنه دون مسلم بن الوليد في هذه الصفة, الصفة التي التفت إليها النقاد القدامى (تنقيح الشعر) منذ بواكير الممارسة النقدية وصولاً إلى عصر الشريف المرتضى, ولم يكن ذلك الالتفات ساريًا إلا لكونها سمة الشعراء الفحول, لذلك كانوا يسمون القصائد الخاضعة للتنقيح((الحوليات و المقلَّدات والمُنقَّحات والمُحكَمات, ليصير قائلها فحلًا خنذيذًا وشاعرًا مُفْلقًا))[١٩] فتنقيح الشعر من المراحل الأولى لتقييم الشعر من لدن الشعراء أنفسهم قبل أن يدخل مضان النقد وتقييمه, أمَّا حسن الألفاظ فهو ممَّا لم يكن لمروان به حظٌ وافرٌ كما أشار الشريف المرتضى فيما نقلناه من نصه في بداية البحث, فيما يأتي ووقوع التشبيهات صفةً لا غنى عنها لعقد الموازنة وتفضيل مسلم بن الوليد عليه, ولم يكن اختيار الشريف المرتضى للتشبيه وجعله أساسًا من أسس الموازنة إلا لمكانته في الشعر, وما نتج عن تلك المكانة عند النقاد من تفضيل شاعر على آخر على أساس التشبيه دون غيره من الأغراض, فأمرؤ القيس((كان أحسن طبقته تشبيهًا, وأحسن الاسلاميين تشبيهًا ذو الرمة))[٢٠] فمكانة التشبيه عند العرب كبيرة إلى الحد الذي جعله بعض النقاد يعده غرضًا قائمًا بذاته[٢١].

أما حينما يوازن بين مروان وبشار بن برد فإنه يحكم بالأفضلية لبشار على أساس جديد, متجاوزًا الأسس التي بنى عليها موازنته بين مروان ومسلم, ألا وهو الأبيات النادرة, وهي الأبيات التي تتسم بفرادة المعنى وابتكاره, لكنه يحتفظ لمروان بمكانة بما كان يمتلك من كل هذه الأسس تجعله في طبقة بين الشاعرين المذكورين, وليس بمقصر عنهما كثيرًا.

إنَّ ذكر النقاد القدماء لمروان بن أبي حفصة مقرونًا بذكر مسلم بن الوليد وبشار بن برد هو ما جعل الشريف المرتضى يُعاود هذه الموازنة ويسلك طريقها, فقد ذكر المرزباني أنَّ الأصمعي سُئِلَ(أبشار أشعر أو مروان؟ قال : فقال : بشار أشعرهما قلت وكيف ذاك؟ قال : لأنَّ مروان سلك طريقًا كثر سلَّاكُه فلم يلحق بمَن تقدمه, وإنَّ بشارًا سلك طريقًا لم يسلكه أحد, فانفرد به وأحسن فيه)[٢٢] بل أنه يذكر أقوالهم صراحةً ليعزز

بها مشروعية هذه الموازنة ((وكان إسحاق بن إبراهيم الموصلي يقدمه على بشار ومسلم, وكذلك أبو عمرو الشيباني) وهو ما يُحيلنا إلى أنَّ مروان كان من طبقة مسلم بن الوليد وبشار بن برد, لذلك كثُر حديث النقاد القدامى عن هذا الموازنة, ولم يكن كلام الشريف المرتضى في ذلك سوى استكمالًا لموقع مروان ومنزلته بين الشاعرين, لكنه يختار حكمه النقدي الخاص به ويضعه في طبقة بينهما فيما أختاره من أسس بنى عليها حكمه النقدي وهي تنقيح الألفاظ, وتدقيق المعاني, ووقوع التشبيهات, لكن هذا لا يعني عدم إجادة مروان في نواحٍ أخرى من نواحي الشعر التي كانت لدى الأثنين, ذلك ما جعله أي مروان (ليس بمقصر دونهما شديدًا, ولا منحط عنهما كثيرًا).

ثم يذكر حكمًا نقديًا عن الأصمعي بأنَّ مروان(مُولِّد وليس له علم باللغة) وهو حكم ذكره المرزباني الذي يُعدُّ من أساتذة الشريف المرتضى في الموشح[٢٣] وتابعه الشريف المرتضى في ذات الحكم دون تعليق, غير أنَّ حكم الأصمعي عن مروان لم يكن إلا مصحوبًا بالدليل, فقد أورد صاحب الموشح ما يُعضَّد مقولة الأصمعي في شأن مروان بعدم معرفته باللغة, حيث ذكر خبرًا عن الأصمعي ولقائه بمروان بن أبي حفصة وما دار بينهما من حديث حول لفظة وردت في بيت زهير بن أبي سلمى. يقول المرزباني نقلًا عن الأصمعي في صفة مروان((كان مولدًا ولم يكن له علم باللغة, حضرته في حلقة يونس وسأل يونس عن قول زهير:

فبتنا عُراةً عند رأس جوادنا

يُزاولنا عن نفسهِ ونُزاولُه

قال : فقال مروان : من العُرَواء من البَرد . قال : فقلت له : أخطأت, لو كانت من العُرَواء لقال: فبتنا معروين! إنما عني أنهم كانوا مشمرين كما يُقال تجرد فلان للأمر))[٢٤] إنَّ صرامة الأصمعي المعروفة في أحكامه النقدية واللغوية, تجعل من السهل عليه الحكم على شاعر بعدم معرفته باللغة, في حين أنَّ ما وقع به مروان يُمكن أن يعده غير الأصمعي في باب الأغلاط التي يمكن أن يقع فيها الكثير من الشعراء.

بعد ذلك يختتم الشريف المرتضى كلامه في شعر مروان, ويمارس نقدًا تطبيقيًا يكشف فيه عن سرقاته ونظائر شعره((فسُئلتُ عند ذلك أن أذكر مختار ما وقع إليَّ من شعره, وأنبه عن سرقاته ونظائر شعره, وأن أملي ذلك في خلال المجالس وأثنائها))[٢٥] وهو ما أفضى في النهاية لاختياره بعضًا من أشعار مروان على أنها من جيد الشعر, مُنبهًا في الموارد التي يذكر فيها الجيد من شعره على بعض سرقاته وأخذه من معاني الشعراء. يقول الشريف المرتضى((فمما يُختار من شعره قوله من قصيدة يمدح بها المهدي

أولها[٢٦] :

أَعَادَكَ مِنْ ذِكْرِ الأحِبَّةِ عَائِدُ
أَجَلْ, واستَخَفَّتكَ الرسُومُ البَوائِدُ

ثم يذكر من القصيدة ستة عشر بيتًا, ويختار منها الأبيات التي أغار فيها مروان على غيره من الشعراء, ذاكرًا أبيات الشعراء ومنوهًا لصاحب المعنى الأول ولمَن اصاب المعنى, وأجاده. يقول الشريف المرتضى((أما قوله :

تساقط منهن الأحاديثُ غصةً
تساقط درٌّ أسلمتهُ المعاقدُ

فكثير في الشعر وأظن أنَّ الأصل فيه أبو حية النميري في قوله :

إذا هنَّ ساقطن الأحاديث للفتى
سقوط حصى المرجان في كفِّ ناظمِ[٢٧]

ثم يذكر ما يناظر هذا المعنى في أبيات للأخطل والبحتري وشعراء آخرين مفضلًا بيتي البحتري على جميع مَن تناول هذا المعنى[٢٨]. وبذات المعالجة يمضي الشريف المرتضى في الكشف عن سرقات مروان في القصيدة ذاتها متحدثًا عن بيت آخر((فأما قول مروان:

إلى ملكٍ تُندى إذا يبس الثرى
بنائل كفيه الأكفُ الجوامدُ

فمثل قول أبي حنش النميري في يحيى بن خالد البرمكي :

لا تراني مصافحًا كفَ يحيى
إنني إن فعلتُ أتلفت مالي
لو يمس البخيلُ راحةَ يحيى
لسخت نفسُهُ ببذلِ النوالِ[٢٩]

ثم يذكر أبياتًا في المعنى ذاته لابن الخياط المدني في مدح المهدي, ولمسلم بن الوليد والعكوك والبحتري, مفضلًا قول البحتري على جميع الشعراء, معلقًا عليه بقوله((وأحسن من هذا كله وأشبه بالمدح, وأدخل في طريقته قول البحتري :

مَن شاكرٌ عنَّى الخليفة بالذي
أولاه من طَولٍ ومن إحسانِ
ملأت يداه يدي وشرَّد جوده
بخلي فأفقرني كما أغناني[٣٠]

ولكثرة النماذج التي ساقها الشريف المرتضى في الكشف عن سرقات مروان بن أبي حفصة في أماكنٍ عدة من الأمالي, سواءً أكانت في قصيدته الدالية أم غيرها, سنكتفي بما أوردنا أعلاه من الأبيات التي أخرجها, وكيف أبان عن معانيها في أبيات عند شعراء آخرين, لنذهب بعد ذلك لما اختاره من شعر مروان على أنه من جيد الشعر ومن النظائر التي كان المعنى فيها لمروان وحده, ولم يغر فيها على معنىً سابق, وهي بذلك ليست في حكم السرقات. يقول الشريف المرتضى((ومن جيد شعر مروان من قصيدة أولها :

خَلَتْ بَعدنا مِن آلِ ليلى المَصانِعُ
وهَاجتْ لنا الشَّوقَ الديارُ البلاقعُ[٣١]

ويقول في موضع آخر((فمما يُختار له من شعره قوله من قصيدةٍ أولها :

صَحا بَعد جهلٍ فاستراحت عواذلُه
وأقصرْنَ عنهُ حِينَ أقصرَ باطلُهْ

ومَن مُدَّ في أيامـهِ فتأخرتْ
منيتُهُ فالشيبُ لاشكَ شَامِلُـهْ[٣٢]

وعـلى هـذه الشـاكلة يمـضي الشريـف المرتـضى في مواضـع أخـرى مـن الأمـالي في اختيـار بعضًـا مـن أشـعار مـروان عـلى أنهـا مـن جيـد الشـعر دون تعليـل سـبب الإجادة فيهـا, وقـد عللنـا ذلـك بقيـام الشريـف المرتـضى عـلى اختيـار مـا هـو جيـد من شـعر مـروان عـلى أسـاس الـذوق الفـردي الخالص, والـذي يتناسـب وطبيعـة النقـد في كتـب الأمـالي القائـم عـلى الاقتضـاب في اطـلاق الاحـكام دون التفصيـل في الأسـس النقديـة التـي نجـم عنهـا هـذا الاختيـار.

الخاتمة ونتائج البحث:

مـن خـلال مـا تقـدم يمكـن القـول بـأنَّ الشريـف المرتـضى قـد نجـح في تقديـم نقـداً وافيـاً عـن شـعر مـروان بـن أبي حفصـة, منطلقـاً مـن ذوقـه النقـدي الخالـص ومعرفتـه الواسـعة بأشـعار المحدثـين, ومَـن سـبقهم مـن الشـعراء المجيديـن, كـما أنـه أولى لبعـض الأسـس التـي كانـت مـن ركائـز النظريـة النقديـة عنـد العـرب, كفكـرة اللفـظ والمعنـى, وفكـرة التشـبيهات والطبقـات وتنقيـح الشـعر وغيرهـا اهتمامًـا انطلـق منـه في نقـده لشـعر مـروان, وعـلى الرغـم مـن ورود كل هـذه الأسـس بصـورة مقتضبـة تفتقـر إلى التفصيـل إلا أنَّ ذلـك لا يـدل عـلى عـدم معرفـة الشريـف المرتـضى بهـذه الأسـس, بـل يـدل عـلى عمـق التفكـير النقـدي المرهـون بطبيعـة الموقـف, وهنـا نـود القـول والإشـارة إلى حقيقـة مهمة وهي, لـولا انشـغال الشريـف المرتـضى بالتأليـف في علـوم الديـن واللغـة والتفسـير لمـا عجـز أن يـترك لنـا كتابًـا نقديًـا نلمـس فيـه بشـكل كامـل براعتـه النقديـة في تلقـي النصـوص الشـعرية, ولم يكـن اختيـاره لشـعر مـروان بـن أبي حفصـة إلا لـضرورة غـير مقصـودة, لكنـه تصـدى لهـذه اللحظـة الحرجـة بـين فريقـين متناقضـين في تلقـي شـعر مـروان وحكـم بينهـما بمـا أملى عليـه ذوقـه الفـردي الخـاص الـذي جـاء مسـتوفيًا للكثـير مـن أسـس النقـد الأدبي والدرايـة فيـه.

هوامش البحث :

١- ينظر : أمالي المرتضى, ج١ ص ٥٤٥, ٦١٠, ٦١٣, ٦٢٤, والشهاب : ص ٤, ٨, ١٠, وطيف الخيال, ص ١٧,١٩, ٢١ .

٢- ديوان السيد الحميري, ص ٣٧ .

٣- أنظر ترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة : ص ٧٦٣ , وطبقات الشعراء لابن المعتز: ص٤٢ والموشح للمرزباني : ص ٢٩١ .

٤- أمالي المرتضى, ج١ ص٥٣٢ .

٥- المصدر نفسه, ٥٥٣ .

٦- المصدر نفسه, ص ٥١٨ .

٧- شعر مروان بن أبي حفصة, ص ١٦.

٨- المجتدى : المقصود المسؤول . تخطت : تجاوزت . التنائف : القفار . تلغب : تتعب .

٩- المصدر نفسه : ص٣٧ .

١٠- أمالي المرتضى, الشريف المرتضى, ج١,ص٥٣٥.

١١- يُنظر: مقدمة شعر مروان بن أبي حفصة, الدكتور حسين عطوان, ص٦ .

١٢- أثبت محقق الديوان بعض القصائد التي تُنسب لمروان ولغيره من الشعراء لا سيما أبنه عبد الله بن مروان بن أبي حفصة, ووضعها تحت عنوان (ما ينسب له ولغيره) .

١٣- معجم الشعراء, المرزباني, ص ٣٩٦ .

١٤- طبقات الشعراء, عبد الله بن المعتز, ص٥١ .

١٥- مقدمة المصدر نفسه, ص١٧ .

١٦- ينظر : مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة.

١٧- ينظر : الفهرست, أبن النديم, ص ٢٢٨, ٢٢٩.

١٨- الموشح, المرزباني, ص ٢٩١ .

١٩- البيان والتبيين, الجاحظ, ج٢ص٩.

٢٠- طبقات فحول الشعراء, محمد بن سلام الجمحي, ص٤٢.

٢١- ينظر: قواعد الشعر, أبو العباس ثعلب, ص٢٨, ونقد الشعر, قدامة بن جعفر, ص١٢٢, ١٢٣.

٢٢- الموشح, المرزباني, ص٢٩٢ .

٢٣- ينظر : المصدر نفسه, ص ٢٩١ .

٢٤- المصدر نفسه والصفحة .

٢٥- أمالي المرتضى, الشريف المرتضى, ج١ ص٥١٩.

٢٦- المصدر نفسه والصفحة.

٢٧- المصدر نفسه, ص٥٢٠.

٢٨- المصدر نفسه, ص٥٢٠, ٥٢١.

٢٩- المصدر نفسه, ص٥٢٢.

٣٠- المصدر نفسه والصفحة, ص٥٢٣.

٣١- المصدر نفسه, ص٥٢٤.

٣٢- المصدر نفسه, ص٥٣٢.

المصادر والمراجع :

١- أمالي المرتضى, غرر الفوائد ودرر القلائد, للشريف المرتضى, علي بن الحسين الموسوي العلوي, (ت ٤٣٦هـ) تحقيق, محمد أبو الفضل إبراهيم, دار إحياء الكتب العربية, عيسى البابي الحلبي وشركاؤه, ط١, ١٩٥٤م .

٢- البيان والتبيين, أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ, (ت ٢٥٥هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون, مكتبة الخانجي, القاهرة, ١٩٦٨ .

٣- ديوان السيد الحميري, اسماعيل بن محمد(ت ١٧٣هـ), شرحه وضبطه وقدَّم له ضياء حسين الأعلمي, منشورات مؤسسة الأعلمي, ط١, ١٩٩٩م .

٤- شعر مروان بن أبي حفصة, جمعه وحققه وقدم له, الدكتور حسين عطوان, سلسلة ذخائر العرب ٤٩, دار المعارف, القاهرة ط٣, (ب ت).

٥- الشعر والشعراء, لابن قتيبة(ت ٢٧٦هـ) تحقيق أحمد محمد شاكر, ط٢, دار المعارف, القاهرة, ١٩٦٧ م .

٦- الشهاب في الشيب والشباب, الشريف المرتضى(ت٤٣٦هـ) مطبعة الجوانب,ط١, قسطنطينية ١٣٠٢هـ .

٧- طبقات الشعراء, لابن المعتز(ت ٢٩٦هـ) تحقيق عبد الستار أحمد فراج, سلسلة ذخائر العرب ٢٠, دار المعارف, القاهرة, ب ت .

٨- طبقات فحول الشعراء, محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ) تحقيق طه احمد ابراهيم, منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠١م .

٩- طيف الخيال, الشريف المرتضى(ت ٤٣٦هـ) تحقيق محمد سيد كيلاني, مصطفى البابي الحلبي وأولاده, مصر, ط١, ١٩٥٥م .

١٠- الفهرست, أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب, ابن النديم(ت ٣٨٠هـ)ط, دار المعرفة, بيروت, ١٩٧٨م .

١١- قواعد الشعر, أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (ت٢٩١هـ) ، حققه وقدم له وعلق عليه د. رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٣ ، ٢٠٠٩ م .

١١- معجم الشعراء, للإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني(ت٣٨٤هـ) دار الكتب العلمية, بيروت, ط٢, ١٩٨٢م .

١٢- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني (ت٣٨٤هـ) ، تحقيق وتقديم : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٥ م .

١٢- نقد الشعر, أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) ، تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٧٩ م .